الإغتراب
في شعر الإمام السجّاد(عليه السلام)

م.م. عامر صلال راهي الحسناوي
كلية التربية/ جامعة القادسية/ قسم اللغة العربية

الخلاصة

نستشفُّ إنَّ ظاهرة الاغتراب في حياة وشعر الإمام السجّاد(عليه السلام)ترتكز على ثلاثة محاور أساسية هي:-

أولاً/المآسي التي قاسى منها الإمام زين العابدين(عليه السلام)،والخطوب الجسام التي تعرّض لها،ولعل أقساها وأفجعها-دون ريب-مأساة كربلاء،التي يُجمع المؤرخون على إنّها من أفجع القضايا في التاريخ الإنساني،إذ أُنتهكتْ فيها حرمة النبي(صلى الله عليه وآله)في ذريته،وأهل بيته،ولم تُرْعَ له فيها أية حرمة،وقد شَهِدَ الإمام(عليه السلام)وشَاهَدَ جميع مآسي تلك الكارثة،فكانت فصولها المؤلمة تلاحقه في كلّ ساعة من حياته،فشكّلتْ لديه خلفية مأساوية تاريخية هطلت ولا تزال تهطل منها معطيات أدبية وفلسفية في البلاء والعزاء والإصرار الدائم على تلمّس الجذور الدامية للمأساة.

ثانياً/إنَّ الإغتراب لا يحِلُّ عادة إلاَّ بالفطاحل الأعلام-علماء الدنيا-وفلاسفة العالم،ولا يعترض إلاَّ حَمَلَةِ الأقلام والحكماء والشعراء،وكلّ نابغة لا يُستهانُ بعلمه وذكائه،والإمام السجّاد(عليه السلام)هو واحد من هؤلاء الفطاحل الحكماء،ولا يخفى على كثيرٍ منّا أنّ بيت النبوة كان من أكبر مصادر النور والعرفان في مدينة جدهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)،فمنذ نكبة الإسلام بمقتل الشهيد وابن الشهيد وأبي الشهداء الإمام الحسين(عليه السلام)انصرف آل بيت النبي إلى العلم النبوي يتدارسونه،وفيهم ذكاء آبائهم،وهداية جدهم،والشرف الهاشمي الذي علا بهم عن سفاسف الأمور،فاتجهوا إلى معاليها،وتوارثوا ذلك الاتجاه العلمي،فورثوا الإمامة كابراً عن كابر،وهكذا إذا كان أهل بيت النبوة قد بعدوا عن سلطان أهل الدنيا،فقد آتاهم الله تعالى سلطان أهل الآخرة،وهكذا كان الإمام السجّاد(عليه السلام)إمام المدينة علماً ونبلاً،فلقد اتجه(عليه السلام)بعد فاجعة كربلاء صوب العلم،لأنَّه وجد فيه خير وسيلة لراحته النفسية التي أذابتها مصيبة والده الحسين(عليه السلام)،وعلى هذا الأساس نمتْ الشجرة العلمية التي غرسها جده الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله)فأقبل الناس بلهفة على طلب العلم ودراسته،فكان حقاً من ألمع المؤسسين للكيان الحضاري والعلمي في دنيا الإسلام،ولعل من أجمل تلك الثروات العلمية والنفحات الدينية،بل من أهمها وأكثرها عطاءً في تنمية الفكر الإسلامي هي أدعيته الجليلة المعروفة بـ((الصحيفة السجّادية))ثمّ((رسالة الحقوق))التي رسم فيها الإمام معالم الشخصية الصالحة التي ينشدها الإسلام ويتبنّاها،وفي الوقت ذاته تنمُّ عن تفوقه العلمي،وتمتعه بمؤهلات ومزايا شخصية كبيرة تتناسب مع دوره الطليعي ورسالته الدينية والإجتماعية.

ثالثاً/زهده(عليه السلام)وعزوف نفسه عن الدنيا وانزوائها عنها،وهذا تحصيل حاصل للعلم والنور الذي أشرق في قلبه،وأنشرح به صدره،فنفس السجّاد(عليه السلام)لا تميل عن الدنيا،ولا تنفر عنها،فوجودها وعدمه لديه واحد،وهذا أكمل درجات الزهد،الذي يربي النفوس،ويسمو بها إلى عالم المثل والقيم الإنسانية الرفيعة،ويشعر الإنسان بالسعادة والاطمئنان في اغترابه عن الدنيا،وأبو حمزة الثمالي يقول:ما سمعتُ بأحد من الناس كان أزهد من علي بن الحسين،إلاَّ ما بلغني من علي بن أبي طالب،وكما نعلم إنَّ أهل البيت(عليهم السلام)كانوا أوعية للعلم والمعرفة الربّانية،وكانوا زهّاداً،عابدين،قانتين،شغلتهم مناجاة الله عن المطامح الدنيوية الرخيصة،فضلاً عن إحساسه(عليه السلام)بعدم

التواؤم مع بيئته،وبوجود هوة تفصله عن مجتمعه،ولربَّما وجد السجّاد(عليه السلام)في هذا اللون من الاغتراب راحة لروحه المعذّبة البائسة،فهو إغتراب في الظاهر،لكنَّه في الواقع لقاء ووحدة مع المحبوب،وفي هذا اللقاء نفي للاغتراب.

وهكذا كانت أشعار السجّاد(عليه السلام)الاغترابية،آية من آيات الفن الرفيع، المتسمة بالأصالة،والنابضة بالحرارة،وصدق المشاعر،ومن هنا كان لها عميق الأثر في نفس كلّ من قرأها ويقرؤها،زِدْ على ذلك إنَّ حِكَمَهُ(عليه السلام)ما هي إلاَّ مظهر رائع من مظاهر طرفه الأخّاذ وعقله الراجح وأدبه الجمّ،إذ أنَّها تطلعُنا على نواحٍ عديدة من حياة الإمام(عليه السلام)الخاصة منها والعامة.

***توطئة:-**

حين الرجوع إلى اللغة بحثاً عن مفردة((إغتراب))نجد أنّها ذات معانٍ واسعة ودلالات عميقة إلاّ إنها تكاد تصبُّ في معنى واحد تقريباً وهو البعد والمفارقة والتباين أو ألانفصال عن شي أو شخص ما(١).ووفقاً لذلك فالاغتراب مفهوم زماني _ مكاني يرتبط مع الإنسان بوشائج قوية حتى صار معياراً يُفسر به قضايا ذلك الإنسان،وهذا ما يقود إلى القول إنَّ مفهوم الاغتراب المستلّ من الغربة ذو شقين: مادي يتجلى في النزوح والبعد عن الأوطان، وروحي فكري يتجلى في((مفارقة الأفكار والمبادئ السائدة في المجتمع،والخروج على الأعراف والتقاليد التي يتمسك بها أكثر الناس))(٢).

ولمّا كان تأثير الشعر في النفس من قبيل إثارة المشاعر والوجدان أكثر بكثير من إقناع الفكر بالحجة الدامغة والبرهان العقلي(٣)،إذ أنّ هذه التدفقات الشعرية اللا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسيِّ؛لذا فقد عُدَّت طبيعة الشعر تلك العامل الأول في الإغتراب،فضلاً عن عامل آخر يرتبط بجميع الظروف المادية والأسباب الشخصية المؤدية للغربة والمعاناة الدائمة(٤)،إذ أنّ الشاعر في كلّ عصر من العصور يظلُّ((يتمزق قلقاً وإحساساً بالغربة،ويظلُّ موزّعاً بين صورة العالم في مخيلته،كما يمكن أن تكون،وبين ما يراه أمامه من حقيقة،من قيم هشّة وأخلاق يائسة تحدد علاقات الناس ومواقفهم،وما يتصاعد أمامه من تناقضات وصراعات متباينة))(٥).

الإغتراب السجّادي:-

والإمام السجّاد(عليه السلام)كان متفرداً في فكره ورؤاه،كتفرده في نمط حياته وصراعه مع مجتمعه،فهو يعدُّ أنموذجاً منفرداً في نوعه لذلك الإنسان الذي استسقى زرعه بالاغتراب العميق والبعيد الغور في الزمان والمكان من نفسه،فإذا كان السجّاد(عليه السلام)قد عكس لنا اغترابه من خلال النثر في مناجاته التي حفلت بها صحيفته السجّادية فضلاً عمّا ألفناه وخبرناه من كتب التاريخ الإسلامي التي تغنّت بذكر السجّاد(عليه السلام)،حتى عدّت((مواعظه ووصاياه دستوراً متكاملاً يحتوي على صورة رائعة من صور الإصلاح الفردي والاجتماعي لما فيه من مجموعة من التوجيهات الهادفة والأفكار الصائبة))(٦)،إذ أنّ اغترابه هو اغتراب العارفين وهو أسمى من اغتراب الزهاد،فالزهاد غرباء بين أهل الدنيا،والعارفين غرباء بين أهل الدنيا والآخرة(٧).

لقد برز الاغتراب في شعره(عليه السلام)عبر الصور الشعرية الرثائية البكائية الحزينة،مثلما برز في حياته التي كانت التعاسة والألم قاسمها المشترك،فالاغتراب((يعدُّ سمة جوهرية للوجود الإنساني))(٨).

من هنا يمكننا القول بثنائية مفهوم الاغتراب وأساسه العميق في نفسية وحياة وشعر الإمام السجّاد(عليه السلام)،أي ثنائية(المجد والخلود)و(الفجيعة والاضطهاد)اللذان اكتسبا بُعدهما التاريخي في قطاع طويل من المسلمين،هو قطّاع الطالبيين،وبامتداد تلك الثنائية عبر الحقب الزمنية أصبح الاغتراب ذا سمات أيديولوجية واجتماعية راسخة.وثنائية المجد والفجيعة تقومان على حقيقتين تنطويان على مفارقة(٩)مأساوية:الأولى مجد علي بن الحسين(عليه السلام)وأسرته ذلك المجد الذي ينطلق في الحسب والنسب من الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله)،فعلي بن أبي طالب(عليه السلام)مروراً بالحسن والحسين(عليهما السلام)،في حين كانت فجيعة الطالبيين والرزية الكربلائية العظمى هي الحقيقة الثانية،وهنا نلحظ المفارقة الدامية بين الحقيقتين،إذ أنّ طهارة النسب بدلاً من أن تقودهم إلى تربّع عرش الحقّ وإدارة دفة القيادة وتصريف أمور المسلمين من قبل السلالة المحمدية الطاهرة،فقد قادتهم إلى حتوفهم،وإلى مواضع الاضطهاد الأموي العاتي فيهم،فيقول الإمام السجّاد(عليه السلام):

وَمَا خُصصنَا بهِ مِن الشَّرفِ الطَّا * ئلِ بينَ الأنامِ آفتنَا
يحكمُ فينا والحكم فيهِ لنا * جَاحِدُنَا حقّنَا وَغَاصِبنَا(١٠)

وللإمام السجّاد(عليه السلام)بعض المقطعات الشعرية التي تنمُّ عن الافتخار بالحسب والنسب،فعلي بن أبي طالب جده،والحسين سيد الشهداء أبوه،والحسن الزكي عمّه،يقول:

إنِّي لأكتمُ من علمي جواهره * كي لا يرى العلم ذو جهلٍ فيفتَتِنا
وقد تقدّمَ في هذا أبو الحسن * إلى الحسين ووصّى قبله الحسنا
يا رُبَّ جوهر علمٍ لو أبوح به * لقيل لي أنت ممّنْ يعبُدُ الوثنا(١١)

وقال(عليه السلام)في قصيدة أخرى وقد سمع مَن يقدّم الشيخين:

فمَنْ شرَّفَ الأقوامَ يوماً برأيه * فإنَّ علياً شرَّفتْهُ المناقبُ
وقولُ رسول الله والحقُّ قوله * وإنْ رُغِمَتْ منه أُنوف كواذبُ
بأنَّكَ مني يا عليّ معالناً * كهارونَ من موسى أخٌ لي وصاحبُ(١٢)

إلاَّ أننا لو أنعمنا النظر في بقية المقطوعات الأخرى غير المذكورتين آنفاً فإنَّنا نجد إنَّ الابتداء الفخاري بالحسب والنسب سرعان ما يندرج في حقيقة لا مناص منها وهي التفجّع،ومرارة التأسي،وبلوغ الشكوى ذروتها لدى المعصوم(عليه السلام)،فيتضاعف لديه الأسى وتتوهج الحرقة في ألمٍ حاد،فهو بين نيران السبي وقيوده،وبين الإستكانة ومرارة الذلّ يقول(عليه السلام):

نحنُ بنو المصطفى ذوو غصصٍ * يجرعُها في الأنامِ كاظِمُنَا
عظيمةٌ في الأنامِ محنتُنا * أوّلنا مبتلى وآخرُنا(١٣)

وقوله(عليه السلام)أيضاً:

أُقادُ ذليلاً في دمشق كأنَّني * من الزنجِ عبدٌ غابَ عنه نصيرهُ
وجدي رسولُ اللهِ في كلِّ مشهدٍ * وشيخي أميرُ المؤمنينَ وزيرهُ
فيا ليتَ أُمّي لم تَلِدني ولم يكُن * يزيدٌ يَراني في البلادِ أسيرهُ(١٤)

والمقطوعتان كما نرى تعالجان موضوعاً واحداً،إذ أنّهما تتحدثان عن مأساة السجّاد(عليه السلام)ومعاناته،وتصوران قسوة القيود والأغلال،وفي كلاهما نجد الفخر بالنسب المحمدي مشوباً بالأسى ومرارة الأسر وذلّته.

الكلُّ يعلم إنَّ لاستشهاد الإمام الحسين(ع)منزلة عظيمة في نفوس المسلمين،بل- إن صحّ التعبير- فهو تظاهرة عزائية تاريخية كبرى يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من غير المسلمين،فكيف الحال إذاً كانت والإمام السجّاد(عليه السلام)من صلب الحسين(عليه السلام)صاحب المصاب الجلل،ومن هنا فقد جاء إغتراب علي بن الحسين(عليه السلام)((وغربته من الفجيعة الأليمة،والمأساة التي لا مثيل لها،من تلك البداية الجليلة،في يوم عاشوراء،حينما استشهد الحسين(عليه السلام)،ومعه الكوكبة الطاهرة من شهداء أهل البيت))(عليهم السلام)(١٥)،فيقول:

بني أميّة! ما هذا الوقوف على * تلك المصائب؟ لا تُلْبُوْنَ داعينا
تصفّقون علينا كفّكم فرحاً * وَأَنْتُمُوْ في فجَاجِ الأرضِ تَسْبُوْنَا
أليس جديّ رسول الله وَيْحَكُمُو * أهدى البريّة عن سُبْلِ المُضِلّينا
يا وقعةِ الطَّفِّ قد أوْرَثْتِنِيْ حزناً * والله يهْتُكُ أسْتَارَ المُسِيْئِيْنَا (١٦)

((لقد جرى قتل أهل بيت الرسول بأيدي أناس كانوا يدّعون الإسلام،وهذا ما أعطى المأساة بُعداً فجائعياً لم يتكرر في التاريخ))(١٧)،إذ لم ينقل لنا التاريخ إنَّ بشراً يقتلون ابن بنت نبيهم إلاَّ في مناسبة واحدة ألاَ وهي ملحمة عاشوراء،وقد صوّر لنا الإمام السجّاد(عليه السلام)تلك الحقيقة أجلَّ تصوير حين قال:

إلى جدنا نشكو عداةٍ تحكّموا * ونالوا بنا-والله-كلَّ مناءِ
ويا جدّنا أردوا أبي متذلِّلاً * قتيلاً وفي الأحشاء حرّ ظماءِ
وقد رفعوا رأساً له فوق ذابل * كما البدر يبدو في علوّ سماءِ
وعادوا علينا ينهبون خيامنا * وليس لنا في ذاك من نصراءِ
وقد حملونا فوق ظهر جمالهم * بغير وطاء جدّنا وغطاءِ
وطافوا بنا شرق البلاد وغربها * جميعهم يهجوننا بهجاءِ
وجاؤا بنا ذلاًّ دمشق يزيدهم * وقد أوقفونا عنده بسواءِ(١٨)

أمّا الزهد والإلمام الجمّ بعلوم الدين التي تفضي بدورها إلى المعرفة الإلهية فيُعدُّ عنصراً أساسياً من العناصر التي غذّت الإغتراب الروحي عند الإمام السجّاد(عليه السلام)،فضلاً عن عنصر الحياة المأساوية التي لازمت بني هاشم،والنصر آباذي يقول:((الزاهد غريب في الدنيا،والعارف غريب في الآخرة))(١٩)،ونبذ الدنيا يعني((الإغتراب عن كلّ ما تميل إليه النفس من شهوات))(٢٠)،يقول(عليه السلام):

لمن يا أيّها المغرور تحوي * من المال الموفّر والأثاثِ
ستمضي غير محمود فريداً * ويخلو بعل عرسك بالتراثِ
ويخذُلكَ الوصيُّ بلا وفاءِ * ولا إصلاح أمر ذي انتكاثِ
لقد أوقرت وزراً مرجحنِا * يسدّ عليك سُبل الإنبعاثِ

فما لك غير تقوى الله حرز * ولا وزر ومالك من غياثِ(٢١)

ولعل صراع الإنسان مع نفسه وكبح شهواتها هو أسمى درجات الإغتراب فـ((مَنْ كرُمَتْ عليه نفسه،هانتْ عليه الدنيا))(٢٢)،والسجّاد(عليه السلام)يرى إنّ عفو الله لا ينال إلاَّ بتطهير النفوس:

فلستَ تنالُ عفو الله إلاَّ * بتطهير النفوس من المعاصي(٢٣)

والنفس البشرية ربما تجمح عن الأفضل وهي به عارفة،وتنفر عن قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب وهي له مستحسنة،((لأنَّها عليه غير مطبوعة،وله غير ملائمة،فتصير منه أنفر،ولضدّه الملائم آثر))(٢٤)،وهذه القضية قد نوّه عنها الإمام السجّاد(عليه السلام)حينما أوصى بمحاسبة النفس إذ أنّها لحبِّ الشهوات أحرص:

تفقّد نقصَ نفسك كلّ يومٍ * فقد أودى بها طلبُ المعاشِ

إلى كمْ تبتغي الشهواتِ طوراً * وطوراً تكتسي لِيْنَ الرياشِ(٢٥)

لقد جعل الله سبحانه وتعالى العلم حاكماً على الإنسان،بل قائداً له وإليه،فـ((الدنيا إذا وَصَلت فَتبِعات موبقة،وإذا فارَقَتْ فَفجِعات مُحرِقة وليس لوصلها دوام،ولا من فِراقها بُدٌّ))(٢٦)،وعليه يجب على الإنسان أن يروِّض نفسه على قطيعتها،ليسلم من تبعاتها،وعلى فراقها ليأمن فَجعاتها،وتكون الجائزة الفوز بجنَّة المأوى والنفس البشرية إذا لم تروّض،فهي((كالفرس الجموح،تزداد جموحاً بإرخاء عنانها،حتى تَهْلُكَ وتُهْلِكُ مَنْ عليها،أمّا عند التحكّم بقيادتها،فإنّها تقطع الشوط وتصلُ هدفها،وقد سلمَتْ وسلمَ راكبُها))(٢٧):

إذا الإنسانُ خافَ النفسَ منه * فما يرجوهُ راجٍ للحفاظِ

فلا ورعٌ لديه ولا وفاءُ * ولا الإصغاءُ نحو الاتّعاظِ

وما زهدُ التقيِّ بحلق رأسٍ * وليس بلبس أثواب غلاظِ

ولكن بالهدى قولاً وفعلا * وإدمان التخشّع في اللحاظِ

وبالعمل الذي يُنْجي ويُنْمي * ويوسع للفرار من الشواظِ(٢٨)

والمعصوم(عليه السلام)أكد على هذه القضية وهذا اللون من المجاهدات الرياضية في الكثير من غرر حكمه سواء الشعرية منها أم النثرية،إذ يقول:((ابن آدم لا تزال بخير ما كان لك واعظٌ من نفسك،وما كانت المحاسبة من همّك،وما كان لك الخوف شعاراً،والحزن لك دثاراً))(٢٩)،وتبعاً لذلك فإنّنا نلمح إنّ أفكار الإمام السجّاد(عليه السلام)عن((النفس))متصلة إتصالاً وثيقاً بثقافته القرآنية أولاً،وبتجربته الشخصية ثانياً،إذ أنّ التطهير هو الطريق إلى معرفة النفس(٣٠)،والفكر هو مفتاح العبادة،ومخالفة النفس والهوى هو علامة الإصابة،ومخالفتهما ترك شهواتهما(٣١).

لقد أطنب السجّاد(عليه السلام)كثيراً في الحضِّ على الصبر والقناعة والتوكّل على الله وغيرها من قيم عالم الزهادة الذي وجد فيه الراحة له ولنفسه التي أضناها الاغتراب؛لذا فالدنيا من وجهة نظره ما هي إلاَّ حلبة سباق زهدية،إذ يقول(عليه السلام):

ألاَ إنّ السباقَ سباقُ زهدٍ * وما في غير ذلك من سباقِ

ويفنى ما حواه المرءُ أصلاً * وفعلُ الخيرِ عند اللهِ باقِ

ستألفن: الندامة عن قريبٍ * وتشهقُ حسرةً يومَ المساق
أتدري أيُّ يومٍ ذاك فِكِّرْ * وأيقِنْ أنَّه يوم الفراق
فراق ليس يشبهه فراق * قد انقطع الرجاء عن التلاقي(٣٢)

واستأثر الزمن بنفسية المعصوم(عليه السلام)كثيراً،فكان له الأثر الكبير في اغترابه الروحي،كيف لا وهو يعدّه خصمه اللدود،فهو الزمن الذي شهد فاجعة أهل بيته في عاشوراء وتضرُّج أرض كربلاء بدمائهم الزكية،وهو ذات الزمن الذي شهد سبيه عنوة((والجامعة في عنقه ويداه مغلولتان إلى عنقه وأوداجه تشخب دماً))(٣٣)،وهو الزمن الذي ساس فيه صغار القوم أو الأدنون أمور الناس،فيما كان نصيب أهل الرئاسة الحقيقية المحن والمصائب:

ساد العلوج فما ترضى بذا العربُ * وصار يقدم رأس الأمة الذنبُ
يا للرجال لِما يأتي الزمان به * من العجيب الذي ما مثله عجبُ
آل الرسول على الأقتاب عارية * وآل مروان يسري تحتهم نجبُ(٣٤)

لكن مع هذا فصروف الزمان واحدة ولعبته ثابتة من وجهة نظر السجّاد(عليه السلام)،يقول:

هو الزمانُ فلا تَفنى عَجَائبُهُ * عن الكرام ولا تَفنى مَصائبُهُ
فليتَ شعري إلى كَم ذا تُجَاذِبُنا * صُرُفَهُ وإلى كم ذا نُجَاذِبُهُ
فسيَّرونا على الأقتاب عارية * وسابق العيس يحمي عنه غارِبُهُ(٣٥)

وظلَّ المعصوم(عليه السلام)وسط تلك الصروف مغترباً،مهدور الطموحات،كثير العناء والشقاء،شديد الإحساس والحماس للماضي،بفقدان أهل بيته من جانب،وآملاً بعودة ذلك الماضي الذي كان آنساً معهم من جانب آخر،ووسط هذا الاغتراب كان السجّاد(عليه السلام)يرى أنَّ هذا الزمان قد أحاطه بالأحزان والخذلان،فيقول:

إنَّ الزمان الذي قد كان يضحكنا * بقربهم صار بالتفريق يُبكينا
حالت لفقدهم أيّامنا فَغَدَتْ * سوداً،وكانت بهم بيضاً لياليا
فهل ترى الدار بعد البُعْدِ آنسةً؟ * أم هل يعود كما قد كان نادينا(٣٦)

فنفثات الشعر المثقلة بالحنين والشوق والمعاناة،تحمل كلّها تلك الهمسات الشجية والتوهّج الأليم،فالصدق ورهافة الإحساس واضحان فيها،يزحمانها بالحيوية والانفعال،ويفجران فيها شحنات عاطفية تنفّس عن الضيق الذي يحاصر الإمام(عليه السلام)،والكآبة التي تمسك به.وربما يستجيب المعصوم(عليه السلام)لدعوة العقلاء الداعين إلى مسايرة الدنيا،وأن يصرف لها حظاً من عنايته إذ لا غنى للتزوّد منها لسفر الآخرة(٣٧)،إلاَّ إنَّه(عليه السلام)في مناجاة الزاهدين نجده يؤكد مراراً وتكراراً على حقارة الدنيا وتفاهتها فهي غدّارة مكّارة،فيقول:((إلهي أسكنتنا داراً حَفَرَتْ لنا حُفَرَ مَكْرِها،وعلَّقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها،فإليك نلتجيءُ من مكائدِ خُدَعِها،وبكَ نعتَصِمُ من الاغترار بزخارف زينتها،فإنّها المهلِكَةُ طُلاَّبَها،المُتلِفةُ حُلاَّلَها،المحشوةُ بالآفاتِ،المشحونة بالنكبات،إلهي فزهّدنا فيها،وسلّمنا منها بتوفيقك وعصمتك))(٣٨)،وهنا نلمح رؤىً اغترابية عميقة الدلالة في نظرته للدنيا،فهي خدّاعة مهما بذل في مداراتها حتى في زخرفها العلني ومتاعها اللذيذ(٣٩)،وحين العود إلى ديوانه الشعري نجده يشدّد مذكِّراً على عدم الانخداع بها،وما على الإنسان إلاَّ أن يرجع قليلاً إلى الوراء

متسائلاً عن السابقين العظماء من خلفاء وأغنياء وأصحاب قوة وبأس،فيقول(عليه السلام):

هل الدنيا وما فيها جميعاً * سوى ظلٍّ يزول مع النهارِ
تفكَّر أين أصحاب السرايا * و أرباب الصوافن والعشار؟
وأين الأعظمون يداً وبأساً * وأين السابقون لدى الفِخارِ؟
وأين القرن بعد القرنِ منهم * من الخلفاء والشّمّ الكبار؟
كأن لم يُخلَقوا! ولم يكونوا * وهل حيّ يُصَان عن البوارِ؟(٤٠)

فـ((رُبَّ مغرورٍ مفتون يصبح لاهياً ضاحكاً،يأكل ويشرب وهو لا يدري لعله قد سبقت له من الله سخطة يصلى بها نار جهنم))(٤١)،مع ذلك فإنَّ نكد الدنيا وسوء حظّ الإمام(عليه السلام)منها حمله على معاتبتها و((مَنْ عَتِبَ على الزمان طالت معتبته))(٤٢)،محملاً إيّاها-الدنيا-مسؤولية التراث المأساوي الثرّ للسلالة المحمدية الطاهرة،فيقول:

عتبْتُ على الدنيا بتقديم جاهلٍ * وتأخير ذي فضلٍ فأبدَتْ لي العُذرا
بنو الجهل أبنائي لذاك تقدّموا * بنو الفضل أبناء لضرتي الأخرى
أأترك أبنائي يموتون عطّشاً * ويرضع ثديي أبن جارية أخرى؟(٤٣)

من هذا يتبيّن إنَّ ابتذال الدنيا وسفسافها هي النتيجة المتوقعة والمستخلصة من عصارة فكر السجّاد(عليه السلام)،فالدنيا دولة مجاز لا حقيقة:

أيغترُّ الفتى بالمالِ زهواً * وفيه ما يفوت من اعتزازِ
ويطلبُ دولةَ الدنيا جنوناً * ودولتُها مخالطة المجازِ
ونحن وكلُّ مَنْ فيها كسفرٍ * دنا منّا الرحيل على وفازِ(٤٤)

((إنَّ حقيقةَ الموتِ يغفل عنها الإنسان بسبب الدنيا وما فيها مع إنَّ هذه الحقيقة تتوقف عليها السعادة الأبدية للإنسان))(٤٥)،وأفكار الإمام زين العابدين(عليه السلام)عن الزمن ومأساويته ترتبط أيما ارتباط بأفكاره عن الموت وحتميته بـ((فقدان الحياة وآثارها ولوازمها))(٤٦).من هنا كان الموت السبب الأول للاغتراب الروحي بالنسبة للإمام(عليه السلام)وليس غريباً عليه(عليه السلام)أن يتحدّث عن الموت،لأنَّ إحساسهُ المتدفق خَبِرَ فيه غنى الحياة،وشخّص الحياة كحقيقة،لكنه بالعقلِ والإحساسِ شخّص الموت كحقيقةالحقائق(٤٧)،فيقول:

تأهّب للمنيّة حين تغدو * كأنَّك لا تعيش إلى الرَواحِ
فكم من رائحٍ فينا وغادٍ * نَعَتْهُ نُعَاتَهُ قبل الصباحِ
وبادرْ بالإنابةِ قبل موتٍ * على ما فيك من عِظَمِ الجناحِ(٤٨)

والموت كما نعلم((هو السيد المطاع الذي لا يدع مجالاً لأي إنسان للركوع أمام سلطان آخر دونه))(٤٩)،فذِكْرُ الموت والقبر خير زاجرٍ لابن آدم من اللهو والانغماس في الملذات،فيقول(عليه السلام):

وفي ذكرِ هولِ الموتِ والقبرِ والبلى * عن اللهو واللّذات للمرء زاجرُ(٥٠)

فالموت يمدُّ المرء بأصناف رفيعة من الحكمة التي تغلب عليها النزعة الاغترابية المتشائمة والحزينة من الدنيا،وذكر الموت والاتعاظ به سيما بعد أن صهرتهُ المحن،ونكبتهُ عوادي الزمن،فالدنيا كانت كما يراها السجاد(عليه السلام):((دار قرار ومنزل استيطان،فإنَّها دار قلعة ومنزل بلغة ودار عمل،فتزودوا الأعمال الصالحة قبل تفرق أيامها وقبل الإذن من الله في خربها))(٥١)،وعبّر عن تلك الحقيقة شعراً،فقال(عليه السلام):

ولم تتزودْ للرحيلِ وقد دنا * وأنتَ على حالٍ وشيكاً مسافرُ
فيا ويحَ نفسي كم أُسوّفُ توبتي * وعمريَ فانٍ والردى ليَ ناظرُ
وكلُ الذي أسلفتُ في الصحف مثبتُ * يجازي عليه عادلُ الحكمِ قاهرُ
تخربُ ما يبقى وتعمر فانياً * فلا ذاك موفورٌ ولا ذاك عامرُ(٥٢)

ولما كان علي بن الحُسين(عليه السلام)إماماً بارعاً فاضلاً محيطاً بأسرار القرآن والسنة النبوية مع التزام الديانة والصيانة،والمشار إليه في الرجوع للاستمداد من علومه وبركاته وكراماته،((فقد كانت له من المفاهيم الإسلامية عدةٌ كبيرة لتقويم شعره بأفكار ثرية بالحكمة والمعرفة والموعظة والسداد))(٥٣)،فقد كان له مع الموت حصراً حوار غنيٌّ بالتصورات والمفاهيم الراسخة،فيقول:

كأنَّ سرورهُ أمسى غروراً * وحلّ به ملّماتُ الزوالِ
وعُرّي عن ثيابٍ كان فيها * و ألبس بعدهُ ثوبَ انتقالِ
وبعد رُكوبه الأفراس تيْهاً * يُهادى بين أعناق الرجالِ
إلى قبرٍ يُغادر فيه فرداً * نأى عن أقربيْهِ و الموالي
تخلّى عن مُروّته وولّى * ولم تحجبه مأثرة المعالي(٥٤)

وكان وصف السجاد(عليه السلام)للموت مزيجاً من الذكاء والفطنة فضلاً عن الطرافة في التشبيه وتصوير حال الناس إزاء الموت،فيقول:

كشاءٍ رتاعٍ آمناتٍ بدا لها * بمديةِ بادٍ للذراعين حاسرُ
فراعت ولم ترتع قليلاً وأجفلت * فلّما انتهى منها الذي هو حاذرُ
هوى مصرعاً في لحده وتوزّعت * مواريثهُ أرحامه والأوافرُ(٥٥)

وظلّ المعصوم(عليه السلام)يودع فكرة الموت وحكمته في غرائر شعره منطلقاً من عذابه الروحي الذي ساقه في مسالك الاغتراب الطويلة،ولعل الاغتراب الروحي هو الاغتراب الأكبر الذي كان(عليه السلام)ينظر من داخله إلى وضعه الشخصي وحياته ومماته،إذ أنَّه كان يرى في قتل الحسين(عليه السلام)وسبي عياله وضياع حقّ بيت النبوة العذاب الذي تتضاءل دونه العذابات الأخرى،فيقول:

ليتَ شعري أعاقلٌ في الدياجي * باتَ من فجعةِ الزمان يُناجي
أنا نجل الإمام ما بالُ حقّي * ضائعٌ بين عصبةِ الأعلاجِ(٥٦)

ويسمو السجّاد(عليه السلام)في ذكر الموت،وفي وعظ الناس،والتذكير بالقيم الإنسانية الكريمة من ورع وتقوى وغيرها من القيم،ويأخذ الزهد عنده مهمة توجيه العزاء لاغتراب الروح بين بطنان الأرض بوساطة الحكمة،فيقول:

فهم في بطونِ الأرضِ بعدَ ظهورها * محاسنهم فيها بوالٍ دواثرُ
خلتْ دورُهم منهم وأقوت عراصهم * وساقتهُم نحوَ المنايا المقادرُ
وخلّوا عن الدنيا وما جمعوا لها * و ضمّتهُم تحتَ التُرابِ الحفائرُ
و أنتَ على الدنيا مكبٌّ منافسٌ * لخطّابها فيها حريصٌ مكاثِرُ
على خطرٍ تُمسي و تُصبحُ لاهياً * أتدري بماذا لو عقلت تُخاطِرُ(٥٧)؟!

وهكذا نجد بكائيات ورثائيات الإمام(عليه السلام)المشوبة بالزهد هي الشاهد على مدى تغلغل الحزن في أعماقه،وهو القائل:((فَقْدُ الأحبّةِ غُرْبة))(٥٨)،فيقول في رثاء جده وعمه وأبيه:

قتلتم عليِّ الطُهرِ، حيدرةَ الرضا * لقد كان خيراً من حسين بكربلا
فلا غروَ أن يُقتَلَ حسينٌ وشيخه * لقد كان خيراً من حسينٍ وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي * أُصيب حسينٌ كان ذلك أعظما
قتيلٌ بشطِّ النهر روحي فداؤه * جزاء الذي أرداه نارُ جهنما(٥٩)

وفي ذات الوقت نجد إنّ بكائياته ورثائياته شاهدٌ آخر على مدى تجاوبه مع الحزانى والثكالى،فيقول(عليه السلام):

وهل هي إلاَّ لوعةٌ من ورائها * جوىً قاتلٌ أو حتفُ نفسٍ يسوقها
وإن أبكِهم أجرض وكيف تجلّدي * وفي القلب مني لوعة لا أطيقها
فلو رجعت تلك الليالي كعهدها * رأَتْ أهلها في صورةٍ لا تَرُوقها(٦٠)

وهذا إن دلَّ على شيءٍ إنَّما يدلُّ على إنَّ السجّاد(عليه السلام)كان يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض،بل إنَّه كان يبكي أحبابه بالذكرى والحنين،إذ إنّه لا يفقد منهم خلا الوجود المادي الملموس،وكما نعلم إنَّ الإمام السجّاد(عليه السلام)هو أحد البكائين الخمسة الذين حفِل بهم التاريخ،وهذا يعني أنَّه كان شديد العَبرة،قوي التعاطف مع المنكوبين والمثكولين،وذلك هو دأب السلالة المحمدية وآل البيت(عليهم السلام)الذين كانوا يبكون الليل خشية من الله العزيز الجبار خضوعاً وتذللاً:

فلمّا رأى أن لا نجاةَ وأنّه * هو الموت لا ينجيه منه المؤازرُ
تندّم لو يغنيه طول ندامة * عليه وأبكته الذنوبُ الكبائرُ(٦١)

وهكذا سمتْ نفس الإمام السجّاد(عليه السلام)بالتفجّع وصارت تفيض عطفاً ورقةً وحناناً،وجزعاً ولوعةً عند كلّ مشهد إنساني مأساوي،وعند كلّ ذكرى مؤلمة،وغدتْ روحه تتغذى من الحسِّ التاريخي،فكلّ ظاهرة كانت تقع تحت بصر المعصوم(عليه السلام)كانت تثير فيه الذكريات،والتفكّر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء وضعف الإنسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمان وصروفه،فضلاً عن الآلام النفسية،فـ((لقد انتبه بعمق إلى حركة الزمن في جدلية البقاء والزوال،مكتنهاً تلك الجدلية من أعمق أعماقها، ومن أول نقطة فيها،فعظُمت نفسه،وتغرّبت،لأنّ الأمكنة ما بين نشوء وزوال،لم تكن قادرة على أن تستوعب جسمه الذي حمل روحاً تطير–دوماً–نحو العُلى والأعالي،لكنّها تسكب الدموع عطفاً ورحمةً))(٦٢):

وخُذْ بالليلِ حظّاً منه واطْردْ * عن العينينِ محبوب الغماضِ
فإنَّ الغافينَ ذوي التواني * نظائرٌ للبهائمِ في الغياضِ(٦٣)

***الهوامش:-**

(١) ينظر:لسان العرب مادة(غرب)٦٣٧/١.

(٢) الإغتراب في الشعر العباسي١٧و٥٤.

(٣) ينظر:جواهر الأدب٢٤/٢.

(٤) ينظر:الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي١٠.

(٥) الشعر في عهد المرابطين والموحدين٢١٩.

(٦) لمحات من سيرة وأقوال الإمام زين العابدين١٢.

(٧) ينظر:الإغتراب في الشعر العباسي٣٠.

(٨) نفسه٨.

(٩) ينظر:نفسه٦٠،والاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي١٥.

(١٠) الديوان١٩.

(١١) نفسه١٩.

(١٢) نفسه٢٥،٢٦.

(١٣) نفسه١٩.

(١٤) نفسه٧٢.

(١٥) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي١٧.

(١٦) الديوان٢٢.

(١٧) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي١٧.

(١٨) الديوان١٧-١٨.

(١٩) الرسالة القشيرية١١٦.

(٢٠) الإغتراب في الشعر العباسي٢٥.

(٢١) الديوان٢٨.

(٢٢) الإمام زين العابدين١٧٠.

(٢٣) نفسه٤٧.

(٢٤) أدب الدنيا والدين٣٠٧.

(٢٥) الديوان٤٦.

(٢٦) أدب الدنيا والدين١١٤.

(٢٧) بداية الهداية١٢٣.

(٢٨) الديوان٥١.

(٢٩) الدر النظيم٥٨٦.

(٣٠) ينظر:كيمياء المحبة١٨٦.

(٣١) ينظر: الرسالة القشيرية١٥١.

(٣٢) الديوان٥٦.

(٣٣) مقتل الحسين(عليه السلام)٣٣٢-٣٣٣.

(٣٤) الديوان٢٦.

(٣٥) نفسه٧٠.

(٣٦) نفسه٢٢.

(٣٧) ينظر: أدب الدنيا والدين١٣٣.

(٣٨) الصحيفة السجادية٢٨٣-٢٨٤.

(٣٩) ينظر: لمحات من سيرة وأقوال الإمام زين العابدين٣٤.

(٤٠)الديوان٣٥.

(٤١) لمحات من سيرة وأقوال الإمام زين العابدين٤٤.

(٤٢) الإمام زين العابدين١٧٢.

(٤٣) الديوان٢٠.

(٤٤) نفسه٤٤.

(٤٥) الأخلاق والآداب الإسلامية١٠٧٠.

(٤٦) نفسه١٠٧١.

(٤٧) ينظر:الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي٤٠.

(٤٨) الديوان٣٨.

(٤٩) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي٤١.

(٥٠) الديوان٣٨.

(٥١) لمحات من سيرة وأقوال الإمام زين العابدين١٦-١٧.

(٥٢) الديوان٤٣.

(٥٣) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي٤٤.

(٥٤) الديوان٦٥.

(٥٥) نفسه٤٢-٤٣.

(٥٦) نفسه٣٠.

(٥٧) نفسه٣٧.

(٥٨) الدر النظيم٥٨٧.

(٥٩) الديوان٢٠.

(٦٠) نفسه٢٤.

(٦١) نفسه٤٠.

(٦٢) الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي٥٢.
(٦٣) الديوان٤٨-٤٩.

مصادر الدراسة:-

١-الأخلاق والآداب الإسلامية/هيئة محمد الأمين(ﷺ)/مطبعة معراج/الطبعة الأولى/إيران-قـم(١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
٢-أدب الدنيا والدين/أبو الحسن علي بن محمد بن حبيـب البصـري المـاوردي/تحقيق وتعليق.مصـطفى السقا/مطبعة أوفسيت الميناء/بغداد١٩٨٣.
٣-الإغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي/عزيز السيد جاسم/مطابع دار الشـؤون الثقافيـة العامة/بغـداد ١٩٨٧.
٤-الإغتراب في الشعر العباسي-في القـرن الرابـع الهجـري-/د.سـميرة سـلامي/دار الينابيع/الطبعـة الأولى/دمشق ٢٠٠٠.
٥-الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام)/د.محمد بيومي مهران/مطبعة السفير/إيران-أصـفهان ١٣٧٩هـ.
٦-جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/السيد أحمد الهاشمي/مؤسسة المعارف/بيروت(د.ت).
٧-الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم/الشيخ جمال الدين يوسف بن حـاتم الشامي/تحقيق.مؤسسـة النشـر الإسلامي/الطبعة الأولى/إيران(د.ت).
٨-ديوان الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(عليهم السلام)/تحقيق.ماجد بـن أحمد العطية/مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت-لبنان(د.ت).
٩-الرسالة القشيرية في علم التصوّف/أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسـابوري/تحقيق.معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي/دار الجيل/الطبعة الثانية/بيروت(د.ت).
١٠-الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس/د.محمد مجيـد السـعيد/مطبعة الرسـالة/دار الرشـيد للنشر/الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام/بغداد ١٩٨٠.
١١-الصحيفة السجادية/الإمام علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام)/مكتبة دار الكتب العالمية/بغداد .١٩٩٧
١٢-كيمياء المحبة/محمـد الريشـهري/تعريب.خليل العصـامي/مطبعة دار الحديث/الطبعـة الثانيـة/إيران ١٤٢٣هـ.
١٣-لسان العرب/ابن منظور(ت٧١١هـ)/دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر/بيروت ١٩٥٦.
١٤-لمحات من سيرة وأقوال الإمام(زين العابدين)الزاهد العابد/جميل إبراهيم حبيب/مطبعـة الديوان/الطبعـة الأولى/بغداد(١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
١٥-مقتل الحسين عليه السلام/السيد عبد الرزاق المقرم/مطبعة غدير/الطبعة الأولى/إيران ١٤٢٤هـ.

In a poetry the imam AL-Sajjad

(The salaam On him)

There are three fundamental elements stand on it the expatriation of the spirituous in the experience living and capillary for the imam Al-Sajjad (The salaam on him) it is:

Firstly/Afflictions that experienced the imam Al-Sajjad, But affliction Karbala calamitous and crueller -without doubt- ,Historians unanimous on that it -Karbala affliction- was from the affairs calamitous in the human history, Where Mohammed the prophets (Gods blessing and peace be upon him)sanctity violated. The imam certify all afflictions this the catastrophe. Karbala a terms the painful was follow him in all hour from a life him. This affliction composed he has tragic back-drop poured from it literary and philosophic facts in the decaying and comfort and the asserting immortelle on feeling roots bloodthirsty for affliction.

secondly/Usually the expatriation dose not obtain except the renowned boffins and philosophers of world, and it is not cavil except the pens bearers and chums of the aphorism and poets and all a genius dose not underestimate by scientific him and intelligence him. We know that prophecy house was from bigger a references of illuminator and knowingness in town of grandfather them God prophet (Gods blessing and peace be upon him).

Since the Islam disaster by amortising the martyr, son the martyr ,and father the martyr Imam Hussein (The salaam on him). The prophecy house kinsfolk cleared off to study the prophetic science and in them intelligence of fathers them, and proselyting of grandfather them, and the honor of Al-Hashemite which went up in them about cheeseparing injunctions, meanwhile they were head for climaxes her, then they inherited this the towards of the scientific and they inherited the imamate a bulging about a bulging

So the imam Al-Sajjad (The salaam on him)was imam Al-Medina science and a nobility and a magnanimities, he moved in the direction of science after Karbala disaster, because he found in it -science- avenue well-being for the psycho rest him that dissolved her Karbala bales, Al-Sajjad was from a shinier the founders to the entity of the civilized and scientific in the world of Islamist.

A bonnier these the scientific assets and the religious whispers and a more it bounteous in a development of Islamist ideology, it is a invocations him the gracious discerned by name ((Al-Sahifa Al-sajjadia)) which refer to excellence him the mental, and a enjoying him by a qualifications and an adjectives of a large charisma go with a role him the avant-garde and a message him the religious and sociological.

Thirdly/Asceticism of imam and waived himself for macrocosm and an aloofness her from him. This order procuring happening for science and illuminator that brightened in a heart him and ecstasized a bosom him by him. Self of Al-Sajjad (The salaam on him) was not incline to macrocosm, and he dose not shy from her, because existence her and nothingness existence her have him whether. This is fullest degrees of asceticism which raise selves, elevate by them into a world of parable and humanism superior values, and the human is feeling with auspiciousness and the assuring in an expatriation him from macrocosm.

The house kinsfolk (The salaam on them) were dispensers for science and christlike knowingness, and they were ascetic, idolisers, communing of God engaged them on cheap earthly ambitions, besides, smelling him (The salaam on him) by nothingness of the chiming with an ambiance him, and finding chasm segregate it from a community him, Al-Sajjad might found in this the color of expatriation, rest for an esprit him the miserable agonising, it is expatriation in apparently, but in the actuality, an encounter and loneliness with the adorable, and in this encounter negative for the expatriation.

Generally, verses of Al-Sajjad (The salaam on him) in expatriation were miracle from miracles the art of superior, the characteristic by authenticalness, and the palpitated by heat, and the feelings candor. It was for her, the weighing deep in a self all who reading her. In addition to that an aphorisms him (The salaam on him) were brilliant outfit from an outfits, an extreme him the groovy and a sagacity a mind him, and a literature him the palatial. It is-aphorisms-brief us on a localities numerous from a life the imam (The salaam on him) the private from her and the commonalty.